بشار بن برد

بقلم الاستاذ أحمد حسن القرنى

تناول الاديب الفاضل الاستاذ القرنى — فى العدد الماضى من هذه المجلة — الكلام عن السياسة والادب ، وصلة كل منهما بالاخر ، وعن الدولة العباسية التى نشأ فى عصرها بشار ، ويبدأ الآن بتحليل شعره ممهداً لذلك بما يأتى . . . . . .

المحرر

السنة التى جرى عليها الأدباء والكتاب فى تحليل الشعراء أن يبحثوا أولا فى حياتهم ، وبعد ذلك يوردون طائفة من شعرهم تؤيد ما ذهبوا اليه . ولن أستطيع هنا إلا أن أخالف السنة أو أعكسها ، وأعتقد أنه من الواجب أن أخالفها أو أعكسها ، لأن بشارا غير جميع الشعراء ، فيجب أن يكون البحث فيه غير جميع البحوث .

كل شاعر تحلله تفترض أن شعره فى متناول الأيدى ، وتقدر أنه متداول معروف ، ولكن بشارا ليس كذلك : فشعره مبدد ، واليسير الباقي منه مبعثر فى كتب جلها غير متداول ، وحسبك أنه ليس لشعره ديوان يجمع متفرقه ، بل حسبك أن تعلم أنه لم يطبع بحث خاص ببشار وشعره غير المجموعة التى أظهرتها له بعنوان (بشار بن برد : شعره وأخباره) منذ خمس سنوات ، ولم أكن يومئذ عثرت إلا على القليل من شعره ، أما اليوم وقد وفقنى الله الى طائفة من شعره لا يستهان بها ، فقبل أن أعرض للبحث فى تحليل حياته سأقدم لك طائفة من شعره لتستطيع فى النهاية أن تسايرنى فيما سأقرره من أحكام ، أو تخالفنى فأكون — فى سبيل الحقيقة والعلم — قد أمددتك بالدليل .

* * *

قال بشار الشعر صغيراً ، وقال فى كل ضروب الشعر ، وبرز فيها جميعاً حتى أجمع نقاد الأدب على احتسابه رأس المحدثين ، وسأقدم لك بعدئذ خلاصة آراء الأدباء قديماً وحديثاً فيه .

برع بشار فى الشعر الوجدانى بأنواعه من : تغزل ومدح وهجاء ورثاء ووصف . وأحب ، بل كان كثير الحب وشديد الحب أيضاً ، أو إن شئت فانه لم يعشق ولم يكلف ، ولكنه كان لاهياً يتصنع الحب ليوقع فى أحبولته من شاء من النساء ، كان يكلمهن بلسان العاشق ، دراية منه بطبيعة المرأة وعرفاناً بالناحية التى تستهويها ، ولقد أبان عن ذلك بقوله :

عرضن للتى تحب بحب ثم دعها يروضها ابليس

يعنى بذلك أن من طبيعة المرأة أن تندفع وراء من يزعم أنه يحبها ، ويردد على سمعها حديث الحب ، وكان عملياً فى ذلك ، فملأ سفر حياته بحديث الحب ، وشعر الحب الذى تلمس فيه الصناعة إن دققت النظر ، ولكن حس السبك ، وجمال الصنعة ، ودقة التعبير ، وسلامة الألفاظ ، واستقامة المنطق ، التى امتاز بها جميعاً بشار تخفى وراءها أثر الصنعة وتلبس شعره ثوب شعر العاشق المشغوف . ومهما يكن من أمره فانه غزل وله تغزل .

وهنا أقرر أن الغزل غير التغزل ، وأن البعض يساوى بينهما خطأ ، وفى هذا يقول ابن رشيق فى كتابه العمدة : « لا النسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى ، وأما الغزل فهو الف النساء والتخلق بما يوافقهن ، فمن جعله بمعنى التغزل فقد أخطأ »

وهكذا يقول قدامة فى كتابه (نقد الشعر) : « قد يذهب على قوم موضع الفرق بين الغزل والنسيب ، والفرق بينهما أن الغزل هو المعنى الذى اذا اعتقده الانسان فى الصبوة إلى النساء نسب بهن من أجله ، فكأن النسيب ذكر الغزل ، والغزل إنما هو التصابى والاستهتار بمودات النساء ». وعلى هذا يكون بشار غزلا ومتغزلا .

تغزل بشار : مهما يكن المرء مستهتراً ولاهياً ، فانه لا يلهو إلا بمن يستحسنها ويستملحها . وبشار ولد أعمى لم ير من جمال الوجود شيئاً ، فكيف كان يتجه قلبه ، ولأى حاسة كان يخضع هذا القلب ؟ . لقد كان يقدر الجمال ويزنه بسمعه ولمسه ، وفى ذلك يقول :

يزهدنى فى حب عبدة معشر قلوبهمو فيها مخالفة قلبى
فقلت: دعوا قلبى وما اختار وارتضى فيا لقلب ، لا بالعين ، يبصر ذو اللب
وما تبصر العينان فى موضع الهوى ولا تسمع الأذنان إلا من القلب

أحب (عبدة) وذكرها فى شعره ، واختصها منه بالنصيب الأوفر ، واستعطفها كثيراً ، ولها يقول حين خرجت مع زوجها من البصرة إلى عمان :

هوى صاحبى ريح الشمال ، وإنه لأشفى لقلبى أن تهب جنوب
وما ذاك إلا أنها حين تنتهى تناهى وفيها من عبيدة طيب
عزيزى من العذال إذ يعذلونى سقاها ، وما فى العاشقين لبيب
يقولون : لو عزيت قلبك لارعوى فقلت : وهل للعاشقين قلوب ؟

ويكشف لنا ذلك عن الشىء الكثير من جرأة بشار واستهتاره ، وإلا فبم تسمى رجلا يشبب بامرأة متزوجة تسمع هى ، ويسمع زوجها ، ويسمع ذووها ما يقول عنها هذا الرجل ؟

بم تسميه ، وهو يقول لها :

يا عبد ! حبي عن قريب وتأملي عين الرقيب
وارعي ودادي غائباً فلقد رعيتك في المغيب
أشكو اليك ، وإنما يشكو المحب الى الحبيب
فزعا اليك من الهوى فزع المريض الى الطبيب

وهبها تستطيع أن تنصل منه ، وتزعمه مفتوناً يهرف ، فماذا هي قائلة حين يعرض عليها قوله :

عبد ! إني قد اعترفت بذنبي فاغفري ، واعدلي خطاي بجنبي
عبد ! لا صبر لي ، ولست — فهلا — قائلا : قد عتبت في غير عتب
ولقد قلت حين أجهدني الحـ ـب فأبلى جسمي وعذب قلبي
رب ! لا صبر لي على الهجر حسبي فأقلني ، حبي ، لك الحمد ، حسبي

أو ماذا يفهم السامعون من قوله :

يا عبد إني قد ظلمت ، وإنني مبد مقالة راغب أو راهب
وأتوب مما تكرهين لتقبلي والله يقبل حسن فعل التائب

إن ذلك كله يعطي معنى الاتصال بينهما — أحبت أو كرهت ، وصدق هو في ذلك أو كذب — ولئن صح للشعراء أن يطيروا على أجنحة الخيال إلى أبعد مدى ، ويلبسوا غير الواقع ثوب الواقع ، ويصوروا الباطل في صورة الحق ، وتذل لهم الألفاظ يصرفون بها الأفئدة ويوجهون الأهواء كيف شاءوا ، فأي رجل هو إن لم يكن مستهتراً ذلك الذي يتخذ من الخيال ومن الألفاظ أداة للتشبيب بامرأة هي لزوجها ، ومع زوجها ؟

على أنه لم يطر الشر بين عبدة وزوجها من جراء ذلك ، وأقصى ما وصل اليه الأمر بينهما هو سفره بها إلى عمان بعيداً عن بشار .

ونستطيع أن نفهم من ذلك أن هذا العصر ساد فيه كثير من التسامح ، حتى صار الرجل يسمع اسم عقيلته يتردد في الأندية وتلوكه الألسن فلا يرى ذلك نكراً ، ويمر كريماً كأن لم يسمع كأن في أذنيه وقراً .

ولقد كنا نستطيع أن نجعل ذلك حكماً قاطعاً على هذا العصر لولا شك يخامرنا في أن (عبدة) هذه أحاطتها الطبيعة بحصانة أو مناعة ، فخصتها بقسط وافر من قبح الذات جعل زوجها يدعها مع الشيطان آمناً عليها من بطشه ، ولهذا كثر لأثمو بشار على حبه اياها ، ولهم يقول :

يزهدني في حب عبدة معشر قلوبهمو فيها مخالفة قلبي

إلى آخر الأبيات التي مرت بك فى طليعة المقال . ولكن بشاراً كان يسمع فيفتتن ، ويعتقد أن وراء الصوت الجميل جمالا وفتنة ، فما يزال يتطلبهما ويستحث القريحة فى الاغراء والغواية ، ويقول ويكرر حتى يفضح ويفتضح ، ولعبدة يقول :

ألا طرد الهوى عنى رقادى ... فحسبى ما لقيت من السهاد
لعبدة ، إن عبدة تيمتني ... وحلت من فؤادى فى السواد

ويقول :

مسنى من حب عبدة ضر ... فبنات الفؤاد ما تستقر
ذاك شىء من حب عب ... دة باد ، أو باطن يستسر

ثم يلبس لها مسوح العاشق المخلص فى عشقه ، المتفرد فى غرامه فيقول :

لعبدة دار ، ما تكلمنا الدار ... تلوح مغانيها كما لاح أسفار
أسائل أحجاراً ونؤيا مهدما ... وكيف يجيب القلب نؤى وأحجار
وما كلمتنى دارها إذ سألتها ... وفى كبدى كالنفط شبت له نار
وعند مغانى دارها لو تكلمت ... لكتئب بادى الصبابة أخبار
تحمل جيرانى ، فعينى لبينهم ... تفيض بهتان اذا لاحت الدار
بكيت على من كنت أحظى بقربها ... وحق الذى حاذرت إذ ساروا

ويصف سهره وعناءه فى حب عبدة فيقول :

لم يطل ليلى ، ولكن لم أنم ... ونفى عنى الكرى طيف ألم
وإذا قلت لها : جودى لنا ... خرجت بالصمت عن لا ونعم
نفسى ياعبد عنى ، واعلمى ... أننى يا عبد من لحم ودم
إن فى بردى جسما ناحلا ... لو توكأت عليه لانهدم
ختم الحب لها فى عنقى ... موضع الخاتم من أهل الذمم

ويقول لها مستعطفاً :

ياعبد ! ياهمتى عليك السلام ... فيم يخفى حبيبك المستهام
نزل الحب منزلا فى فؤادى ... وله فيه مجلس ومقام

ولكأننى به كان يحس بالريبة تتمشى فى قوله لها ، أو كان يعرف من نفسه عدم الاخلاص فيما يدعيه ، فهو لا يفتأ يقسم لها لينفى الريبة عن قوله فيقول :

ياعبد ! زوريني تكن منة ... لك عندى يوم ألقاك
والله ، ثم الله فاعتقدى ... أنى لأرجوك وأخشاك

يا عبد إنى هالك دنف إن لم أذق برد ثناياك
فلا تردى عاشقاً ولها يرضى بهذا القدر من ذاك

واستمع اليه وهو يصورها فى صورة التي استجابت له، وخشيت عليه الهلاك إن لم تمتعه ببرد ثناياها كما زعم ، فأهدت اليه مسواكها فهو يقول :

وهبت له على المسواك طيبا فطاب له بطيب ثنيتيك
أقبله على الذكرى كأنى أقبل فيه فاك ومقلتيك

ولكن مع كل ذلك فالشيء الذى يكشف عنه شعره أنه لم يكن عاشقاً ولكنه كان غزلا ، فهو لم يعلن حب عبدة وحدها، ولا شبب بها دون أترابها ، بل أنشد كثيرات غيرها ، فهوى : خشابا ، ورحمة الله ، وسلمى ، وغيرهن . بل كان يسير فيسمع الصوت الجميل فيشبب ويتغزل ويلح فى التشبيب والتغزل ، وهو الذى يقول :

وكاعب قالت لأترابها ياقوم ما أعجب هذا الضرير
أيعشق الانسان مالا يرى ؟ فقلت ودمعى بعينى غزير
إن كان قلبى لا يرى وجهها فانها صورت فى الضمير

ولا تستهوينك رقة شعره فتظنه مخلصاً ، ولكنما كان صناعا ماهراً تتزاحم عليه المعانى ، وتواتيه الأفكار فينظم وشيا خلابا . وسأورد عليك شعره فى غير عبدة فترى تلك الروح بعينها . ولكى تعلم مقدار الصلة بين شعره وقلبه فاسمع قول هذا الأعمى الفنان المصور:

خططت مثالها وجلست أشكو اليه ما لقيت على انتحاب
كأنى عندها أشكو إليها همومى والشكاة إلى التراب

تأمل فى قوله هذا ربما أعرض عليك شعره فى عشيقاته الأخريات لتستطيع أن تستخلص بعد ذلك حكما قاطعاً فى غزله وتغزله ، ومدلول هذا الغزل والتغزل ؟

احمد حسنين القرنى
المدرس بمدارس النهضة المصرية الثانوية وكلية الفرير

الاختلاط بين الجنسين

(بقية المنشور على الصفحة رقم ١٠٩٢)

أحلى هذه الرؤية الهادئة ! ! فقد كان كل شيء مستقر فى مكانه تبعاً للنظام الطبيعى : فالمقاتل وحده فى الحرب ، والمزارع فى الأرض ، والفنان فى عمله ، والمرأة فى دارها وبين صغارها ، ولم يكن هذا ليسلبها نعمة القراءة أو الفن .

وأخيراً فلست أرى الاختلاط مفيداً البتة ، وإنما هو خطر على العائلة ، فيجب أن نقاومه ؟

ف . دى سان بوان